المحاضرة الأولى

لطلبة السنة الثانية ماستر، تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

1. حركة الشعر الحر في الجزائر

مقدمة:

لئن كانت الجزائر في ستينيات القرن الماضي وما قبلها تعاني من ويلات المستعمر الفرنسي الذي فرض هيمنته على كل مظاهر الحياة، إلا أن الأحرار الجزائريين الذين اتخذوا الكلمة سلاحا في وجه المستعمر لم يستكينوا ولم يهِنوا، بل سعوا للخروج من تلك الهيمنة بنُشدانهم التحرر والانعتاق في كل المجالات، سيما في مجال الشعر الذي هيمن فيه التقليد في الشكل والمضمون. لكن جهود الشعراء الشباب آنذاك لم تذهب هباء، بل أثمرت حركة شعرية جديدة سُميت بحركة الشعر الحرّ. وفيما يأتي أهم مراحلها وخصائصها.

أ . مراحلها وخصائصها الفنية:

اتسم الشعر الجزائري الحديث قبل الثورة بالطابع الكلاسيكي، سواء على صعيد المبنى أو المعنى، ولم يتزحزح عن التقليد؛ إذ بقيت الأغراض القديمة مثل الوصف والفخر والهجاء، والمدح ... وهذه الأغراض، من حيث المضامين، بعيدة عن انشغالات الإنسان وطموحاته. أما من حيث الشكل، فإن شعراء هذه المرحلة كانوا ملتزمين بتطبيق الأوزان الخليلية إلا في القليل النادر. وقد تميزت أشعار هذه المرحلة ب:

. إعادة استنساخ الصور الشعرية القديمة (التشبيه، الاستعارة، الكناية...) وانعدام الصور الجديدة، المبتكرة. ويلخص الشاعر عمر أزراج واقع الشعر الجزائري قبل الثورة التحريرية في النقاط الآتية:

* من حيث المضمون، كان الشعراء الجزائريون آنذاك ينقلون الواقع القائم نقلا دقيقا.

* يواكبون الأحداث ويكتبون عنها بسرعة وسطحية لعدم انصهارهم في أتون قضية كبرى التي من خلالها يشكلون مواقفهم تجاه القضايا المُلحّة، التي تفرض نفسها على وجودنا .

* انفصام شخصيات أغلبية الشعراء حيث تجد الشاعر الواحد منهم يمدح آخرين ويهجو آخرين، ويتغزل بحبيبة لا وجود لها إلا فيما ندر، فهذا الشاعر منفصم الشخصية، لا يرى الشعر نسيج العالم ونبضه، ولا يرى اللغة إلا أداة لوصف عالم خارجي ما، أو حالة من الحالات .

أما من حيث الشكل، فإن إنتاجهم ظلّ أمينا ووفيا لمناخات القصيدة العربية الانحطاطية؛ إذ يلتزمون النظام الموسيقي الخليلي. أما من حيث الصور، فإنهم يشبهون الأشياء بالأشياء على طريقة شعراء عصر الانحطاط، إذ إن هناك مسافة بين المشبه والمشبه به، وهذه المسافة بالضبط هي أزمنة القصيدة (...)، في حين أن الصور الشعرية الحديثة تسعى للتوحيد بين الأشياء؛ أي أنّ الصورة الشعرية العصرية حطّمت جدار الثنائية القائمة بين الشعر والعالم، وبين الذاتي والموضوعي.

يُرجع بعض الدارسين والنقاد تأخّر ظهور التجربة الشعرية الجديدة في الجزائر عن مثيلاتها في المشرق، إلى أنّ "الأرضية التي بسطتها الترجمة في المشرق للشعر الحر، لم تتح للشاعر الجزائري الذي وقف من الثقافة الفرنسية موقف العداء، فلم يحتك بها إلا في وقت متأخّر. وبالرغم من النداءات المبكرة التي رفعها (رمضان حمود) في العشرينيات من القرن الماضي للأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية، والنّهوض بالأدب العربي عن طريق الترجمة، إلا أنّ طابع القطيعة بات يفرض نفسه على الثقافة العربية والفرنسية، على حدّ سواء، في الجزائر."

كتب الأديب **(رمضان حمود)**، رائد الاتجاه الرومانسي في الجزائر، مقالة عنوانها: " الترجمة وتأثيرها في الأدب" أظهر فيها جانبا كبيرا من الوعي الثقافي، ورغبة ملحّة للتغيير، غير أن الأقدار أسرعت إليه، لتخطفَه يدُ المنون في ريعان شبابه، مخلّفا مشروعه في التغيير غيرَ مُجسَّدٍ، وبقي تيار الوعي الذي حمل لواءَه لم تتشكل ملامحه كما يشتهي في الجزائر.

غير أن جهوده لم تذهب سُدى، فقد ترك نداؤه للوعي آثارا أسهمت في تبلور حركة الشعر الحر في الجزائر. فقد كتب قصيدة موسومة ب"يا قلبي" وفيها نلمس رغبة جادة في التجديد في حركة الشعر الجزائري، وركوب موجة شعر التفعيلة. "ولعلّ هذا ما دفعه إلى القول بأنّ الوزن والقافية أغلال حديدية تكبّل الشعر الحر ولا تطوّره، وغاية أمرها تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال."

وتبقى بصمات الشاعر المرحوم (رمضان حمود) واضحة في إيجاد نمط جديد في موسيقى الشعر، بمحاولاته الرائدة التي لم يكملها إلى مبتغاه بسبب وفاته المبكرة. وهذا مقطع من قصيدته "ياقلبي":

أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان

نصيبك في الدنيا الخيبة والحرمان

أنت يا قلبي تشكو همة ما كبارا، وغير كبار

أنت يا قلبي مكلوم، ودمك الطاهر يبعث به الدهر الجبار

أرفع صوتك للسماء مرّة بعد مرة

وقل اللّهم إنّ الحياة مرّة

أعنّي اللّهم على اجتراعها

يُظهرُ هذا المقطع النبرة الرومانسية الحزينة للشاعر، ويكشف عن توجّه جديد في الكتابة الشعرية، وعن عزمٍ وتصميمٍ للتغيير والتجديد، وكسر الرتابة.

ولم يبق الشعراء الجزائريون بعيدين عن مشهد التجديد، بل استلوا أقلامهم وكتبوا بروح ثائرة، وقلوب مؤمنة ببزوغ فجر جديد. فقد كتب **(محمد عبد القادر الأخضر السائحي)** أول قصيدة في هذا النمط الشعري بتونس في 4 أفريل سنة 1953 بعنوان "**حنيــن**"، وفيها يبدي حنينه إلى حضن الوطن، وإلى رؤية كل حبيب وكل عزيز على قلبه، وكل جميل سارّ. يقول فيها:

حبيبي،

من القلب قلبي،

إليك .

حنيني ووجدي

حبيبي

أحنّ إلى كلّ شيءٍ

لديك..

حنيني

إلى وطني، إلى حفنةٍ من ترابه

حنيني

إلى زهرة ذات عطرٍ

لديك..

فؤادي

من الذكريات

يُضني الطريق البعيدة

فؤادي

مشوق إلى كلّ شيء

لديك

أما " أبو القاسم خمّار فقد نظم" قصيدته بعنوان "الموتـورة"، كتبها بمدينـة حلب السورية سنـة 1954، التي ضمّنـها ديوانـه "أوراق"، يصف فيها حال لاجئـة فلسطينيـة بائسة نازحة. يقول فيها:

كحبل وريد ..

قريب.. بعيد..

هناك من خيمة نازحة

إلى جانب قرية نائحة

هنالك خلف القبور العراة

بين المآسي، لفح السراب

بدت عائدة

بقبضتها كمشةُ من ترابٍ

تزاحمها صخرةٌ صامتة

و قد هتفتْ بروح عجيب

كلون اللّهيب..

كلحن الألم

*** * ***

إلام .. الشّقاء .. ؟

لماذا تحاربني يا زمان.. ؟

أمّا فيك إشراقة أو حنان..

قتلت أبي، وأضعت أخي

أبقيتني ذَرّة شاردة،

أُلاقي الهوان

وأزحف فوق السِّنان

وتعصف بي زفرةٌ عاتية

شرودٌ، سقامٌ، فتوق

وآهة قلب مشوق،

وذل العقوق،

وظلم الأمم

إنها صرخة الألم من ترك الوطن، وآهة مجلجلة من صمت الألسنة على الحق. إنها زفرة مُرّة للتعبير عن وجع ترك الوطن. والقصيدة وقفة شجاعة للشعب الجزائري مع الشعب الفلسطيني الذي يقاسمه المعاناة في ظل الاحتلال وظلمه وقهره.

ويعتبر (أبو القاسم سعد اللّه) من الشعراء الرواد الذين ركبوا موجة التغيير، وأسهمو في دفع عربته إلى الأمام بعزم وثبات، وهذا ما أشار إليه وهو يتلمّس طريقه نحو التجديد في قصيدته الأولى "طريقي" التي نشرها في البصائر في 25 مارس 1955"، ويُعدّها المتتبعون للشعر الجزائري أول قصيدة من الشعر الحرّ في الجزائر، وهي من بحر الرمل، وفيها يشير إلى التغيّر الحاصل في الوطن باختيار الشعب طريق الكفاح والنضال. يقول في هذه القصيدة:

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

فقد اخترت طريقي !

*** * ***

و طريقي كالحياة

شائك الأهداف، مجهول السمات

عاصف التيار وحشيّ النضال

صاخب الأنّات عربيد الخيال

وظلام وشكاوى ووحول

تتراءى كطيوف

من حتوف

في طريقي

يا رفيقي !

لقد شقّت قصيدة "طريقي" طريقا حرا للشعراء التواقين إلى التغيير في الجزائر، وتدفّقت بعدها قصائد الشعراء المجدّدين جداولا وأنهارا.

***أسباب ظهور الشعر الحر في الجزائر وبواكيره:**

لو بحثنا في الأسباب التي ساعدت على ظهور الشعر الحر في الجزائر، فإننا نجد في مقدمة هذه الأسباب:

. اتصال بعض الشعراء بالمشرق العربي، خاصة مصر ولبنان في إطار البعثات الطلابية، واطلاعهم على الحركة الشعرية الجديدة وشكلها. يقول (أبو القاسم سعد الله) في كتابه (دراسات في الأدب الجزائري الحديث)، متحدثا عن تجربته الأولى في الشعر: "كنتُ أتابع الشعر الجزائري منذ 1947، باحثا فيه عن نفحات جديدة وتشكيلات تواكب الذوق الحديث، ولكنّي لم أجد سوى صنما يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد، وصلاة واحدة، غير أنّ اتصالي بالإنتاج الأدبي، والمدارس الفكرية والنظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلّص من الطريقة التقليدية في الشعر."

وفي القول ما يشير إلى أن الشاعر المؤرخ (أبو القاسم سعد الله) كان يتابع حركة الشعر منذ سنة 1947، لكنه لم يسمع إلا صوتا واحدا، ولم ير إلا شكلا واحدا، وهو الشعر التقليدي. ولما أتيح له الاحتكاك بالشرق استطاع أن يكسر تلك الرتابة، ويغيّر اتجاهه إلى الشعر الجديد.

. اندلاع الثورة التحريرية المباركة، وهذا أهم عامل على الإطلاق؛ إذ بانطلاق الرصاصة الأولى للثورة في ليلة أوّل نوفمبر 1954، معلنة عن فجر جديد للجزائر في كل المجالات، انطلقت التجربة الشعرية الجديدة، لتواكب الأحداث آنذاك.

لقد دفعت الثورة الشعراء وعلمتهم البحث عن طريقة جديدة للتعبير عنها، "وبذا أتاح الشعر الجديد للشاعر فرصة التعبير عن تجاربه بحرّية (...) فأصبح يشكّل القصيدة وفق تجربته الخاصة و حسب الموسيقى كما يحسّها في نفسه و بما يتلاءم و الرؤية الجديدة للواقع المتغيّر."

أما الباحث المغربي (يوسف ناوري) فقد ربط بداية الشعر الحر في الجزائر بالعامل النّفسي، "أي برغبةٍ عبّرت عنها الحاجة إلى بيتٍ يحرّر ذات الشاعر من قيود القصيدة القديمة، ويسمح له بتمثيل الشرائط التاريخية ووقعها على ممارسته الفردية، حتى و لو كانت ردّة فعل نفسية انتقلت إليه من الأثر الرومانسي." فالحالة النفسية للشعراء آنذاك تتوق للتحرر، و إخراج كل تلك الانفعالات التي فرضها ذلك الجو المضطرب .

. مجلة "الآداب" التي أسسها سهيل إدريس، والتي تصدر بلبنان، كان لها الفضل في ظهور الشعر الحر في الجزائر وانتشاره ، بنشرها التجارب الجديدة في ميدان الشعر وتشجيعها العمل الأدبي، وهذا ما كان له الأثر الطيب في نفوس جيل الشعراء الروّاد.

***مراحل تجربة الشعر الحر بالجزائر:**

قسم الباحثون التجربة الشعرية الجديدة في الجزائر إلى مرحلتين:

1. مرحلة الثورة (1954 . 1960): وهي المرحلة التي شهدت رغبة كبيرة لدى الشعراء للتجديد، وهي المرحلة التي تحدثنا عنها، وأثمرت القصائد المذكورة. وما يلفت الانتباه أن معظم الشعراء احتكوا بزملائهم المشارقة، كما توفرت لهم الحرية الفكرية ووسائل النشر. **وتميزت هذه المرحلة بكثرة الإنتاج الشعري.**
2. مرحلة الاستقلال، وتنقسم إلى فترتين:

أ . الفترة الأولى وتمتد من سنة 1962 إلى سنة 1968.

ب. الفترة الثانية وتمتد من 1968 إلى سنة 1974.

ولكل فترة روادها وأعلامها.

خاتمة:

أعطت حركة الشعر الحر في الجزائر نفسا جديدا للشعر الجزائري، و مكّنت الأدباء الجزائريين من مواكبة الجديد، وإيجاد طريقة للتحرر من التقليد. ولعل صدى الثورة التحريرية من القيود الاسعمارية حافز للشعراء ليجددوا في الشكل والمضمون لدعم الثورة التي كانت بأمسّ الحاجة إلى الدعم بالكلمة الحماسية الثائرة.

مراجع البحث:

1. أبو القاسم خمار، أوراق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
2. أبو القاسم سعد الله ، ثائر و حب، منشورات دار الأدب، بيروت، ط1 ، مارس 1967.
3. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د، ط .1985.
4. أزراج عمر، الحضور في القصيدة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 .
5. حمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
6. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث –الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
7. عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
8. محمد الأخضر عبد القادر السائحي، ألوان من الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2.
9. محمد ناصر، رمضان حمود حياته و آثاره، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985
10. يوسف ناوري الشعر الحديث في المغرب العربي (الجزء الاول)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.